أهمية الرحلات في الكتابات التاريخية

The importance of trips in historical writing

سـامية بـوصيـقع.
جامعة يحي فارس بولاية المدية.
samiabsg91@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-10-09 تاريخ القبول : 2019-12-18

الملخص:

تعد كتب الرحلة أو أدب الرحلات مصدرا من أهم المصادر العلمية في عملية التدوين التاريخي بالنسبة للمؤرخين والباحثين في هذا المجال، نظرا لما تحمله بين صفحاتها من معلومات قيمة ونادرة قلما نجدها في كتب التاريخ الأخرى، فهي تصور لنا أماكن وأزمنة لم نكن لنحصل عليها دون مغامرات أولئك الرحالة والمسافرين عبر مناطق الكون. لكن مع ذلك وجب على مستعمليها أخذ الحيطة والحذر في عملية النقل منها كما ويجب إخضاعها للنقد التاريخي كون أن كتابات أصحابها غير دقيقة تماما يتخللها بعض الخيال وتسودها صبغة الذاتية، إضافة إلى عدم إتقان معظم مؤلفيها للغة العربية وغيرها من النقائص التي تشوبها. وعليه فإن كتب الرحلة لها ما لها وعليها ما عليها في عملية التوثيق التاريخي والكتابات التاريخية.

Journey books or travel literature are one of the most important scientific sources in the historical bloggign process for historians and researchers in this field, given the valuable and rare information it holds between its pages, we rarely find it in other history books, they imagine us places and times not we have to get them without adventures of those travelers and travelers across the universities. However, its users must take care and caution in the transfer process from it, and it should be subject to historical criticism, since the writings of their owners are completey inaccurate, punctuated by some imagination, and the character of self prevails(subjectivity). In addition to most of their most important arabic language and other characteristics,Therefore, the books of the trip to her have the historical documentation and historical writings.

الكلمات المفتاحية: كتب الرحلة – الكتابات التاريخية – المغرب والأندلس – الرحالات.

Keywords : books travels – historiques writings –maghrib and Andalus -Traveles.

مقدمة:

إن الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا، وإن اختلفت دوافع الرحيل وتباينت وسائل السفر وتنوعت وتعددت مادة الرحلة. فالإنسان يرتحل من رحم أمه إلى دنياه ثم يرحل من مرحلة الطفولة مارا بمراحل عديدة وصولا إلى الشيخوخة ومن الدنيا إلى الآخرة وهكذا من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان آخر؛ فالرحلة صديقة الحياة ومواكبة بل ومصاحبة ومزامنة لها في كل وقت وحين. ولا يخفى على أحد ما تحمله الرحلة من أهمية، فالإنسان يرى من خلالها عجائب الأمصار والآثار المختلفة، فهي تزوده بمعلومات مهمة وتجارب نافعة. وقد برز كثير من الرحالة العرب وغير العرب الذين قاموا برحلات طويلة وألفوا كثيرا من الكتب في ذلك صوروا فيها ما شاهدوه في رحلتهم وما صادفوه في طريقهم، فكانت هذه الكتب وثائق هامة صورت لنا الحياة في تلك الأزمان.

وعليه: **ما هي أهمية كتب الرحلة في عملية التدوين التاريخي؟**

أو بعبارة أخرى: ما قيمة كتب الرحلة في الكتابات التاريخية؟

1/ مفهوم الرحلة:

أ- في القرآن الكريم والإسلام:

تنوعت وتعددت المفردات الدالة على الترحال والرحلة في القرآن الكريم؛ فمنها: الإسراء في قوله تعالى في سورة الإسراء:"سبحان الذي أسرى بعبده..." والظعن في قوله تعالى في سورة النحل:"والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم..."، ولفظة الحج في قوله تعالى في سورة الحج:"وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"، كما استعمل لفظ سفر في سورة سبأ في قوله تعالى:"فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا..."، أما الهجرة فقد ذكرت في العديد من السور منها قوله في سورة النساء:"فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله..."، أما لفظ السير فجاء في سورة الحج أيضا في قوله تعالى:"أفلم يسيروا في الأرض..." وفي سورة سبأ في قوله:" ... سيروا فيها ليالي وأياما آمنين".

الرحلة: من الارتحال، وهي تعني الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين، ماديا كان ذلك الهدف أو معنويا، أما الحركة خلال الرحلة بقطع المسافات فهي السَّفر، وجمعه: أسفار،وقد ورد ذكر الرحلة في القرآن الكريم أيضا في قوله تعالى في سورة قريش:" لإيلاف قريش إلى فيهم رحلة الشتاء والصيف " (1)

ب- في السنة النبوية الشريفة:

رُوي عنه قوله صل الله عليه وسلم:" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"، وأشهرها هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة فرارا من الاضطهاد وظلم قريش ثم هجرة الرسول صل الله عليه وسلم وأصحابه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فرارا بالدين وخوفا من الفتنة. (2)

ت- الرحلة في اللغة:

الرحلة لغويا من يرحل رحلا ورحيلا وترحالا ذهب. ورحَّله من بلده أخرجه منها. وارتحل القوم انتقلوا والراحلة الناقة الصالحة لأن تُركب. والرَّحل مركب للبعير أصغر من القتب. والرحل أيضا ما يستصحبه المسافر من الأوعية جمعه رحال. والرُحلة الجهة التي يقصدها المسافر، يقال مكة رُحلتنا، وهو عالم رُحلة أي يرحل إليه (3)

ويقول الفيروز أبادي في القاموس المحيط: أن الرحلة هي الانتقال من مكان لآخر: ارتحل البعير رحله: سار فمضى، وارتحل القوم عن المكان: انتقلوا، كترحلوا.(4)

والرحال والرحالة اصطلاح يطلق مبالغة على الرجل يخرج إلى بلد آخر أو أكثر، ويقع جمعا، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة.(5) "والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرُّحلة والرحلة. والرحلة: اسم للارتحال للمسير. يقال: دنت رحلتنا. ورحل فلان وارتحل وترَّحل بمعنى... والرحلة، بالضم، الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول: أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم".(6)

ث- الرحلة في الاصطلاح:

يقول الشيخ حسن العطار في السفر:" السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب".(7) كما عرفها بطرس البستاني بأنها: انتقال واحد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة. وعرف الإمام

الغزالي السفر والرحلة بأنهما: نوع حركة أو مخالطة أو نوع مخالطة مع مع زيادة تعب ومشقة وأوضح أن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب وأن الإنسان لا يسافر إلا لغرض والغرض هو المحرك.(8) وتمثل الرحلة سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المتين بين المكان والمكان الآخر. وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة في نفس الإنسان وترضيه وقد تكون احترافا يخدم حاجة في نفس الإنسان ويشبعه.(9) فالشخص الذي قام بالرحلة، قد ترك موطنه، وانتقل إلى مكان آخر، وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها، لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة.(10)

وعليه فإن الرحلة على مستوى المضامين، تحتوي على معارف متنوعة، تاريخية، جغرافية، دينية وأدبية، وحتى إثنوغرافية. وعلى مستوى الأشكال نجد فيها السرد والوصف، الحكايات والأخبار، الرسائل والأشعار. وهكذا جعلها المؤرخ نصا تاريخيا فيه كثير من المعلومات المتصلة بالبلدان المزارة؛ وجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر بها؛ كما يجد فيها كل من الإثنوغرافي والباحث في تاريخ الأفكار والدارس الأدبي كل ما يودون معرفته عن ميدان بحثهم وتخصصهم.(11)

2/ مفهوم أدب الرحلة:

ورد في معجم المصطلحات الأدبية أن أدب الرحلة هو: "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق؛ ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".(12)

وعند أنجيل بطرس: أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية وهي الرحلة التي يقوم بها رحال إلى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفا لها ويسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب... وهناك صفتان لابد من توفرهما في أدب الرحلات وهما:

أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها. وبمعنى مبسط وأوضح تتمثل الصفتان في: الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية وشخصية الرحال من ناحية أخرى.(13)

وأدب الرحلات كذلك هو النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر: الرحلة عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميز، وفي لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته الفنية المستقلة.

3/ الرحلة تاريخها وأسلوب كتابتها في الإسلام:

عرف الإنسان منذ القديم بحبه للمغامرة، وشغفه لاكتشاف المجهول، لهذا قام بالبحث عن وسيلة تمكنه للوصول إلى هدفه، فراح يخترق الآفاق متحديا بذلك كل ما هو صعب، وعلى هذا الأساس اتسعت الرحلات على مر الزمان؛ فقبل مجيء الإسلام كانت تعرف برحلتي الصيف والشتاء، أما بعد الإسلام فقد انفتح الرحالة على العالم برحلاتهم؛ وأصبحت الرحلة وسيلة للتثقف والتعلم والاتجار مع الأقطار المجاورة، كما اختلفت الدوافع للقيام

بها من شخص لآخر.(14) ثم إن الرحلة قديمة قدم الإنسان، فقد دأب الإنسان منذ خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض يبحث عن الرزق تارة وعن العلم وجمع الحديث النبوي الشريف وزيارة الأماكن المقدسة تارة أخرى، فنشأ بين ذلك تبادل وانتظمت التجارة بين الشعوب والبلدان (رحلة الشتاء والصيف) واتسع ميدان الرحلة باتساع رقعة العالم الإسلامي، وتنافس فيه التاريخ والأدب وفنون أخرى، وهذا ما انعكس على تسمية الرحلة فعرفت بـ: الرحلة، أدب الرحلة، الأدب الجغرافي... (15)

نرى أن المسلمين في العصور الوسطى أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار والحق يقال فما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع هجريين عن الرحلات كثير جدا، غير أن المعروف عن الرحالة أنهم لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرا، أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. نستطيع القول أن غالبية مؤلفات الجغرافيين المسلمين الأوائل إنما هي نتاج الرحلات التي قاموا بها والتي اصطلح على تسميتها باسم تقويم البلدان، فلا نكاد نجد مصنفا يحمل اسم الرحلة اللهم إلا إذا كان صاحبها قد قام برحلته تلك في مهمة رسمية أو أحد التجار الرحالة الذين لا يُلمون إلماما كافيا بالعلوم الجغرافية.(16) واعتمد الرحالة في هذه الكتب أسلوبا واحدا يقوم على الوصف لذا اتسمت هاته الرحلات بغزارة مادتها التي تتحدث عن البلدان والبحار وما فيها من عجائب، وشملت فوق ذلك كتب تحمل اسم رحلات معروفة ومحدودة مثل: رحلة ابن جبير وابن بطوطة وغيرهم الكثير. واتسعت رقعة الدولة الإسلامية فاحتاجت للجغرافيا الوصفية ما أدى إلى ظهور كتب المسالك مثل: كتاب ابن خرداذبة الذي ذكر فيه الإنتاج الزراعي والضرائب والخراج ؛وتطلبت السياسة الإدارية للدولة الإسلامية والتجارة وما إليها وصفا دقيقا للأمكنة والبقاع فظهر كتاب البلدان لليعقوبي. وقد كان القرن الرابع هجري من أحفل القرون بأخبار الرحالة العرب ولم يزل بعضها يعتبر حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث في البلدان والأقطار، إضافة إلى كتاب ابن حوقل صورة فقد ذكر فيه كل ما شاهده من ظواهر ويعد هذا الأخير موسوعة جغرافية بكل ما تحمله الكلمة من معنى.(17)

لقد كتب معظم الرحالة رحلاتهم ووضعوها انطلاقا من ثلاثة ركائز أساسية وهي:

- **الترتيب الزماني:** حيث يحدد فيه الرحالة زمن بداية ونهاية الرحلة، وقد يقسم رحلته إلى وحدات زمنية اعتمادا على اليوم والشهر والاسبوع.
- **الترتيب المكاني:** يتم فيه مراعاة مراحل الطريق وترتيب الأماكن التي مر بها المرتحل، وقد يختلط الترتيب الزماني بالمكاني، فيخصص يوما لزيارة كذا ويوما لزيارة كذا.
- **الترتيب الموضوعي:** ويقوم على اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها لوصف مدن أو شعب ما، وقد يهمل أو يراعى في ذلك الترتيب الزماني والمكاني.(18)

4/ دوافع الرحلة والعوامل التي ساعدت عليها:

تعددت أسباب ودوافع الرحلة وكان منها:

- وصف الأقاليم والعناية بها، حيث تطلب إتساع رقعة الدولة الإسلامية دراسة ووصفا دقيقا لحدودها تمهيدا لتطبيق الأحكام الشرعية وتسهيلا لمهمة الولاة في إدارة أقاليمهم.

- وصف المدن والبقاع خاصة من الناحية الاقتصادية لمعرفة وتحديد ثروة البلاد وقدرتها على دفع الجزية والخراج.
- جمع الحديث من أفواه الرواة.
- تأدية فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي الشريف، وقد سجل لنا هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وكذلك الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها في رحلتهم والأحداث التي صادفوها في مصنفات ضخمة عرفت بكتب الرحلة.
- ممارسة التجارة التي اتسع نطاقها عند المسلمين في العصور الوسطى.
- دور الميل الغريزي عند العرب خصوصا ولدى الإنسان عموما في القيام بالرحلات.(19)
- السعي في طلب العلم والاستفادة من العلماء مثلما قال ابن خلدون:" فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال".(20)
- الرحلة للرحلة أي بدافع الرغبة. (21)
- التكليف بالمهمات من قبل ولاة أو خلفاء الدول.
- الحاجة إلى المعلومات والبيانات عن البلدان والشعوب المجاورة التي امتد إليها الاسلام.(22)

وبصورة أسهل وأوضح تكون الرحلات للبواعث والأسباب التالية:

- **البواعث الدينية:** كالهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام أو لأداء فريضة الحج، أو للجهاد والمرابطة في الثغور والربط.
- **العلمية والتعليمية:** وتكون قصد التعلم والاستزادة في مختلف العلوم على يد شيوخ كبار وعلماء متخصصين في المجال.
- **البواعث السياسية والحربية:** تتمثل في الوفود والسفارات إلى الدول الأخرى، والحربية للتوسع على حساب الأمم الضعيفة.
- **البواعث الثقافية:** قد تكون لمعرفة المعالم والآثار الشهيرة في العالم.
- **البواعث الاقتصادية:** وتكون للتجارة وتبادل السلع بطريقة البيع والشراء، أو قد تكون بحثا عن عمل وقوت للعيش.
- **البواعث الصحية:** كانت لأجل العلاج والاستشفاء، أو ربما هروبا من الأمراض الخطيرة كالطاعون وغيره.(23)

5/ أنواع الرحلات:

اختلف العلماء والمؤلفون في تقسيم الرحلات وتعداد أنواعها المختلفة فمنهم من جعلها في أربعة أنواع ومنهم من جعلها في نوعين ... وفيما يلي سأورد تقسيما لها في الإسلام وآخر في الحالة العامة .

أ- أنواع الرحلة في الإسلام:

إن للرحلة أنواعا كثيرة ، فهي تتعدد بتعدد أغراضها و مقاصدها ، كما أن لكل نوع منها حكما شرعيا ، وتقسم الرحلات إلى الأقسام التالية :

1- رحلات طلب النجاة :

ومن أشهر مقاصد هذا النوع من الرحلات ما يلي :

- الهجرة : وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام.
- الخروج من الأرض البدعة أو الأرض التي غلب عليها الحرام.
- الفرار من الإذاية في البدن أو المال : و أول من حفظناه في مثل هذه الرحلات الخليل إبراهيم لما خلف من قومه حيث نجد ذلك في الآية : " وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم "(24) وكذلك قوله تعالى عن موسى:" فخرج منها خائفا يرتقب قال رب نجني من القوم الظالمين "(25) والأمثلة هنا كثيرة .

2- **رحلات لطلب الدين** : ويشمل :

- الرحلة في طلب العلم .
- الرحلة لأداء فريضة الحج .
- الرحلة للجهاد أو الرباط في سبيل الله.
- الرحلة بغرض قصد البقاع الكريمة : ويكون ذلك في نوعين : المساجد و الثغور للرباط في سبيل الله .
- زيارة الإخوان في الله .
- السفر بقصد العبرة .

3- رحلات لطلب الدنيا :

- سفر المعاش : بغرض تحصيل الضروري من الأرزاق .
- سفر التجارة و الكسب الزائد عن القوت .
- السفارة (التمثيل الدبلوماسي).

4- **السياحة :** (26)

- الرحلات خارج نطاق الإسلام:

1- **الرحلات العلمية:** وهي أحد نوعي الرحلات المغربية والأندلسية التي اتخذت أساسا للخروج للحج وأطلق عليه لفظ البرنامج والغالب فيه الجانب الثقافي، إذ يكاد يخلو من الوصف الجغرافي والتطرق للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اختصت بها الرحلات المغربية والأندلسية الأخرى. بالإضافة إلى أنها من أوسع البرامج أو الفهارس العلمية لما اشتملت عليه من تراجم وافية وأسانيد مضبوطة وأسماء مؤلفات وكتب؛ ومن هنا فالبرامج نوع من الرحلات قائم بذاته، وقد انصب اهتمام مؤلفه على الجانب العلمي فقط؛ ومن أمثلة هاته الرحلات: ابن جابر الوادي آشي والرعيني.

2- **الرحلات الوصفية:** تتخذ من الوصف أسلوبا لكتابتها ومنها رحلة ابن جبير- التجيبي- السبتي- ابن بطوطة- العبدري؛ وتشتمل الرحلات الوصفية على جوانب تاريخية قديمة ومعاصرة للرحلة ونواحي اقتصادية واجتماعية وسياسية.

وهناك نوع جديد من الرحلات يعد خليطا من النوعين السابقين كرحلة البلوي التي قام بها في سبيل العلم وأداء الفريضة فشملت الوصف الجغرافي والجانب الثقافي معا.(27)

وعليه فإن أنواع الرحلة أربعة وهي:

- الرحلة الرسمية.
- رحلة التجارة والعجائب.
- الرحلة العلمية.
- الرحلة الدينية أو الحجازية.(28)

6/ **آداب الرحلة في الإسلام:**

أ- الآداب العامة:

- ابتغاء مرضاة الله: أي استحضار النية الصالحة وقصد ابتغائه في كل حركاتنا وسكننا.
- الإخلاص: كونه مشروعا في أي عمل يقوم به الإنسان.
- استمداد العون من الله: ماديا كان ذلك أم معنويا كطلب التوفيق والصبر على تحمل المشاق وأما العون المادي فطلب الرفقة الصالحة.
- بيان موقفه المالي: أي جعل وترك وصية بعد غيابه.
- إقامة وصاية على أهله ومصالحه من بعده: ينبغي أن يترك من يخلفه في أهله وإدارة شؤونه المتخلفة عنه وخير مثال لما خلف رسول الله صل الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب بمكة يوم الهجرة، ومن قبله خلف موسى أخاه هارون على بني إسرائيل يوم ذهب إلى ميقات ربه.
- صلاة ركعتين قبل السفر.
- إتخاذ مرشد إذا اقتضى الأمر ذلك.
- النظر إلى الأشياء بروية وتعقل.
- التحلي بمكارم الأخلاق خلال الرحلة.

ب- الآداب الخاصة:

- **الاستعدادات المادية والأخذ بالأسباب:** لقوله تعالى:" تزود فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب"(29)
- **الاستعدادات الثقافية:** مثل معرفة أهم الأماكن التي يقصدها الرحالة.
- **الاستعدادات الطبية:** إصطحاب الأدوية لأصحاب الظروف الصحية الخاصة.(30)

7/ **خصائص الرحلات:**

- أسلوبها قصصي يعتمد على السرد المشوق والمؤثر.
- كان هم الرحالة إيراد الحقائق والتأثير على قارئها.
- تضم شخصيات الرحالة وطبيعة ميزاجهم ونفسياتهم من خلال ما سجلوه من معلومات.
- هي مصادر شاملة سُجلت فيها جوانب متعددة حضارية، أدبية، جغرافية، سياسية، تاريخية، اقتصادية...
- قيامها على التجربة والملاحظة المباشرة.(31)
- تعنى بالوصف الدقيق والتصوير الأمين والنقل الصادق.(32)

وفيما يلي خصائص الرحلات المغربية والأندلسية:

أ- الخصائص العامة:

- **التجربة والاختبار:** فأغلب معلوماتهم دونت عن تجربة واختبار من أغلب الأحيان، لا على الرواية والنقل؛ فمثلا ابن جبير قام بقياس طول وعرض المسجد الحرام.
- **الرحلة للحج وطلب العلم:** حيث تنوعت أسباب الرحلات إلى المشرق مابين أداء فريضة الحج وطلب العلم وربما التجارة.
- **الوصف الجغرافي والعمراني:** فقد اختصت معظم كتاباتهم بالوصف الجغرافي لكل مكان وصلوا إليه وعاينوه بالمشاهدة، وقد اشتمل

الوصف هذا لديهم على: وصف المدن- وصف الأحوال الجوية- المساجد- المباني- أماكن وجود الماء والبساتين- القلاع والحصون- البحر- الجبال والصحراء- الطرق والقرى- الآثار التاريخية- المجتمعات وأخلاقها وطباعها.

- التطرق للبدع والشائعات المنتشرة.
- تصحيح مايرونه من أخطاء شائعة.
- تسجيل الأحداث التاريخية المعاصرة: حيث سجلت أقلامهم جل الأحداث التاريخية التي عاصروها في رحلتهم.
- إبراز الناحية السياسية للبلدان التي زاروها وكذا الاجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية والثقافية.
- احتواؤها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية.
- البعد عن الأسلوب الخيالي والاعتماد على الأسلوب العلمي المدعم بالآراء المنطقية.

ب- الخصائص الخاصة:

- كان كل رحالة يكمل ما نقص عن سلفه، ويضيف إلى الرحلة لبنات جديدة.
- احتواؤها على نوع جديد وهو ما يعرف بالبرامج كرحلة الرعيني.
- احتوت على التعريف بالعلماء ومدى إسهامهم في الميدان العلمي.
- إصلاح وتصحيح الأخطاء التي وقعت في الأسانيد والآداب.
- تنوع مادتهم بين الفقه والسياسة والاجتماع وغيرهم كرحلة ابن بطوطة.
- كتابتها على هيئة مذكرات يومية كرحلة ابن جبير.
- منهم من أملاها من الذاكرة كابن بطوطة، ومنهم من كتبها أثناء رحلته وحين عودته قام بتحريرها وتنقيحها، ومنهم من تركها على حالها دون تحرير أو تنقيح، ومنهم من قام بذكر المسافات المقطوعة بين كل مرحلة ومرحلة أو مدينة وأخرى بالفراسخ والأميال كابن جبير، ومنهم من ذكرها بعدد الأيام تعبيرا عن المسافة التي قطعت كابن بطوطة.
- ملاحظ عليهم مصاحبة أصدقائهم أو أقاربهم في رحلتهم لأداء الفريضة وطلب العلم كابن جبير والعبدري.(33)

8/ أهمية وقيمة كتب الرحلة:

- معرفة المسالك و المسافات و الطرق و المعالم و المحطات و مناطق الخطر.
- معرفة أحوال الناس و نمط حياتهم لاجتماعية .
- كشف الجوانب الاقتصادية للأماكن التي مر بها الرحالة من خلال حديثهم عن الصناعات و طرق التجارة و أنماط التعاملات التجارية و النقود و جودتها أو زيفها.
- أهميتها في الجانب العلمي فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم و سجلوا نشاط العلماء الذين أخذوا عنهم و المراكز الثقافية و المدارس و غيرها .
- مفيدة في التعرف على الجوانب العلمية و الأدبية و الاجتماعية و الاقتصادية و التاريخية بل و حتى السياسية.(34)

- هي مصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.(35)

ولكتب الرحلة أيضا أهمية كبيرة فهي تحمل فوائد للمؤرخ و الجغرافي و عالم الاجتماع و غيرهم وذلك بتقديم معلومات مهمة لا يتم الحصول عليها من عامة الكتب المؤلفة في مختلف الاختصاصات التاريخية و الاجتماعية و الاقتصادية.(36)

وفي قيمة كتب الرحلة يقول أحمد أبو سعيد : " فأما القيمة العلمية فهي تكمن في احتواء معظم هذه الرحلات على كثير من المعارف و المدونات التي تمت إلى الجغرافية و التاريخ بأوثق الصلات ، ففيها عدا عن ذكر ما قاساه كاتبوها من ألوان المتاعب و الأهوال ، صور و تقارير وافية عن الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و العمرانية للعرب ومن جاورهم من شعوب آسية و إفريقية وشطر من أمم أوروبا : كذكر المعالم الأثرية، ودرس العلاقات الاقتصادية ، ووصف الممالك و البلدان ، و الأصقاع و الأقطار، والمسالك والطرق و غير ذلك مما لا يزال يعتبر حتى اليوم مرجعا أساسيا في دراسة وصف بعض البلدان الجغرافي و العمراني و الاجتماعي و الاقتصادي ".(37) كما أن الرحلات تقدم في مجال التاريخ بعض المعلومات التي لم يقدمها لنا العلم المختص في هذا المجال و تطرقت إلى تحليل جوانب من التاريخ لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية الأخرى ، بحيث توجد في الرحلات بعض المعلومات و الأحداث و أسماء الأماكن المختلفة و العلماء و السياسيين و رجال الدين التي لم نجدها في الكتب التاريخية و لولا الرحلات لم تكن لتظهر هذه الأسماء و الأحداث ، فدراسة الرحلة من الناحية التاريخية مفيدة في معرفة الجوانب العلمية و الأدبية و الاجتماعية و الاقتصادية بل و حتى السياسية. أما في الجانب الجغرافي فإن الرحالة يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض فهو يصف الممالك و البلدان و المدن و المسالك و يتحدث عن المناخ و توزيع السكان، إضافة إلى شرح الطرق و المسافات بينها ، ومنهم الكثير كابن جبير وابن بطوطة ، فهي مصدر لكثير من الجغرافيين.

كما أن هناك أهمية للرحلة تخص الرحالة في حد ذاته، حيث يتعرف من خلالها على الكثير من المعلومات التي تخص البلد الذي زاره من خلال مخالطته للناس. إضافة إلى استفادته من العلماء الذين جالسهم وتحاور معهم؛ وما يؤكد ذلك أن الراحل أو الرحالة حين يعود إلى موطنه يعمل في التدريس كما كان يكلف بالقضاء ومهام أخرى.(38)

ونجد مثلا كتاب نزهة المشتاق للإدريسي كمصدر أساسي لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي؛(39) ورحلة ابن بطوطة كمصدر هام لدراسة الطرق الصوفية في الشرق الإسلامي؛(40) **وللرحلات المغربية والأندلسية** أهمية خاصة تتمثل في الآتي:

- **من الناحية العلمية:** حيث تعد من أشهر الكتب التي تشير بوضوح إلى الجانب الثقافي والعلمي مع الكشف عن الأصول والمنابع التي استقى الرحالة علومهم منها.
- **من الناحية الاجتماعية:** شكلت هاته الناحية جانبا لا يستهان به في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين حيث نجد رحلة كل من ابن جبير وابن بطوطة فهي سجلات حافلة بالجوانب الاجتماعية التي تبين ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وتقاليد خصوصا بمكة المكرمة.
- **من الناحية السياسية:** تتمثل فيما تم تسجيله من ملاحظات عن الأحوال السياسية في البلاد

الإسلامية التي نزلوا بها فقد كشف لنا الكثير من الأمور التي نجهلها عن أمور الدولة الإسلامية كعلاقاتها الداخلية والخارجية وغيرها.(41)

9/ بعض كتب الرحلة العربية وأشهرها:

أ- الرحلات المغربية والأندلسية:

- **القرن السادس هجري:**

– الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، سنة 560هـ/ 1165م.(42)

– رحلة ابن جبير: من 578هـ إلى 581هـ، استغرقت سنتين وثلاثة أشهر ونصف الشهر.(43)

- **القرن السابع هجري:**

– رحلة العبدري: كانت عام 688هـ.(44)

– رحلة السبتي التجيبي: بدأها سنة 696هـ.

– رحلة التجاني التونسي.(45)

- **القرن الثامن هجري:**

– رحلة ابن بطوطة: سنة 725هـ، شملت رحلته كثيرا من أقطار العالم وقد دامت 28 عاما. قطع خلالها 75000 ميل.(46)

– رحلة ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.(47)

- **القرن التاسع هجري:**

– رحلة القلصادي: بدأها سنة 840هـ.(48)

- **القرن العاشر هجري:**

– الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي: سنة 901هـ/ 1495م، جغرافية إفريقيا أو وصف إفريقيا.(49)

- **القرن الحادي عشر:**

– رحلة التمكروتي الجزولي: سنة 1003هـ/ 1595م، النفحة المسكية في السفارة التركية.(50)

ب- رحلات المشارقة في القرنين 3 و 4 هجريين:

– اليعقوبي: توفي 284هـ.

– ابن خرداذبة: توفي 300هـ.

– الأصطخري: توفي 346هـ.

– المسعودي: توفي 346هـ.

– ابن حوقل: توفي 367هـ، القرن 4هـ.(51)

– المقدسي: توفي 380هـ.(52)

خاتمة:

وعصارة الكلام أن الرحالة برحلته يقدم لنا معلومات مفيدة وثمينة عن نواحي مختلفة من الحياة، ويكون ذلك أحيانا بأسلوب أدبي بليغ يدهش القارئ؛ فنجد في أدب الرحلات النماذج الأدبية من القصة والرواية والشعر والسير الذاتية وغيرها من أنواع الأدب، كما يحتوي مؤلف الرحالة على معلومات قيمة عن التاريخ خصوصا

الاجتماعي والاقتصادي منه وعلم الجغرافيا والسياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها. وللرحلات أيضا أهمية كبيرة من الناحية التعليمية وذلك أن الرحالة يتعرف في رحلته على الكثير من المعلومات والمواقع ويتتلمذ على يد كثير من العلماء والشيوخ أثناء رحلته، ويكتسب تجربة وخبرة واسعة في هذا المجال. ومن هنا تأتي خلاصة القول حول أهمية كتب الرحلة في الكتابات التاريخية بصفة عامة والاقتصادية والاجتماعية منها بصفة خاصة. ومن بين أهم النتائج والتوصيات المستنتجة من المقال ما يلي:

1. الرحلة قديمة قدم الإنسان وقد ذكرت في القرآن الكريم.
2. بالنسبة للباحثين من الضروري الاعتماد على كتابات الرحالة في البحوث العلمية خصوصا ما تعلق منها بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية وحتى الجغرافية.
3. معظم الرحلات جاءت بأسلوب قصصي روائي يتخلله شعر.
4. الرحلة في حد ذاتها تعليمية تربوية تثقيفية للرحالة نفسه أكثر من غيره من قارئها والمطلعين عليها من الباحثين وغيرهم.
5. على كل مسافر أو مرتحل أن يدون ما يمر به وما يراه في رحلاته وخرجاته حتى تصبح مذكرات له ومؤلفات تستفيد منها الأجيال القادمة.
6. تحمل كتب ومؤلفات الرحالة ذخيرة وزادا معلوماتيا لم تحمله كتب أخرى وقلما نجد مثله.

الهوامش:

1. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1996، ط1، القاهرة، ص15.
2. نايف عايض الدهاس مشعل: الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين 3و4هـ دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2008، ص16.
3. فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، المجلد 4، ص26.
4. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ج3، ص394.
5. عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 7و8هـ – دراسة تحليلية مقارنة-، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996، الرياض، ص ص40، 41.
6. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، 1119، القاهرة، ص ص1610، 1611.
7. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، 1983، ط2 منقحة ومزيدة، لبنان، ص19.

8. ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن 4 هـ، دار النشر للجامعات المصرية، 1995، ط1، ص24.
9. صلاح الدين الشامي: "الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية"، مجلة عالم الفكر، المجلد 13، العدد 4، 1983، الكويت، 13.
10. عواطف: المرجع السابق، ص ص40، 41.
11. عبد القادر بكاري: "الرحلة ودورها في التدوين التاريخي الجزائري رحلة أبو راس الناصري نموذجا"، مجلة عصور الجديدة، العدد 19-20، اكتوبر 2015، جامعة وهران، الجزائر، ص215.
12. مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، 1948، ط2، لبنان، ص16.
13. الموافي: المرجع السابق، ص38.
14. بوشرف: المرجع السابق، ص7.
15. زيادة نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، 1982، ط3، لبنان، ص15.
16. الدهاس: المرجع السابق، ص13.
17. نفسه، ص ص17، 18.
18. إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، 2004-2005، ص ص26، 27.
19. الدهاس: المرجع السابق، ص ص15، 16.
20. عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، 2001، بيروت، ص745.
21. سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة(قديما وحديثا)، مكتبة غريب، مصر، ص12.
22. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989، الكويت، ص ص80، 81.
23. بوشرف: المرجع السابق، ص ص10، 11.
24. سورة العنكبوت: 26.
25. سورة القصص: 21.
26. الصعيدي: المرجع السابق، ص23-26 وص 39.
27. عواطف: المرجع السابق، ص72-76.
28. الموافي: المرجع السابق، ص34.
29. سورة البقرة: 197.
30. الصعيدي: المرجع السابق، ص45، 46، 50، 54، 58، 60.
31. الدهاس: المرجع السابق، ص ص19، 20.
32. النساج: المرجع السابق، ص9.
33. عواطف: المرجع السابق، ص88-91.
34. الدهاس: المرجع السابق، ص20-22.
35. فهيم: المرجع السابق، ص15.
36. فردوس أحمد بت: "أهمية أدب الرحلات من الناحية العلمية والتعليمية"، مجلة اللغة، العدد 3، مارس 2017، جامعة علي كراه الإسلامية، ص76.
37. أحمد أبو سعد: أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، منشورات دار الشرق الجديد، 1962، ط1، ص ص5، 6.
38. فردوس: المرجع السابق، ص77-79.
39. محمد حناوي: كتاب نزهة المشتاق مصدر أساسي لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات5، مكناس، 1993، ص57.

40. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، 1983، ط2 منقحة ومزيدة، لبنان، ص89.
41. عواطف: المرجع السابق، ص91-93.
42. عبد العزيز بن عبد الله: الرحالة العرب والمسلمون من المغرب وإليه، ندوة الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا، الرباط، نوفمبر2003، منشورات وزارة الثقافة، ط1، ص198.
43. حسني: المرجع السابق، ص19.
44. عواطف: المرجع السابق، ص118.
45. أبو سعد: المرجع السابق، ص355و ص361.
46. عبد العزيز: المرجع السابق، ص196.
47. حسني: المرجع السابق، ص55.
48. أبو سعد: المرجع السابق، ص ص 387، 388.
49. عبد العزيز: المرجع السابق، ص199.
50. نفسه، ص200.
51. شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، 1119، ط4، القاهرة، ص12.
52. الدهاس: المرجع السابق، ص38، 63، 78، 86، 125.